بلاغة الحجاج: الأصول والامتداد

أ. هندة كبوسي
جامعة أم البواقي

ملخص:

تروم هذه المقالة الإجابة عن إشكالية علاقة البلاغة الغربية الكلاسيكية ببلاغة الحجاج الجديدة، لاحتفائهما بالخطاب التداولي الحجاجي، وهذا بالوقوف عند البلاغة الكلاسيكية التي رسم أرسطو معالمها من خلال مصنّفه الخطابة "Rhétorique"، و موازنتها ببعض النماذج المعاصرة الرائدة في بلاغة الحجاج الجديدة،إذ لم يعد الرجوع للبلاغة القديمة سمة من سمات الرجعية بل أضحى دليلا على الإحاطة بالإشكالية الخطابية.وبناء على ذلك فهل الحديث عن بلاغة الحجاج الجديدة يستتبع بالضرورة إقصاء للبلاغة الكلاسيكية أم أن بلاغة الحجاج الجديدة ماهي إلا شكل جديد منبعث من رحم البلاغة الكلاسيكية؟فإن كان كذلك فماهي الحدود الفاصلة بين البلاغتين؟ وما مدى التزام بلاغة الحجاج الجديدة بمقومات وركائز بلاغة الحجاج الكلاسيكية ؟

الكلمات المفتاحية: الخطابة، البلاغة الجديدة، البلاغة الكلاسيكية، بلاغة الحجاج.

Summary :

This article aims to answer the problematic of the relationship between classical Rhetoric and the new rhetoric of argumentation, given their relevance to argumentative pragmatic discourse. This, based on the classical Rhetoric of which Aristo laid down his principles, and making a comparison between this Rhetoric and contemporary models known in the New Rhetoric of Argument.

The fact of referring it to ancient rhetoric has not become one of the characteristics of the Ancient but it considers itself a justification for taking an overall interest in the discursive problematic.

Then, to speak of the new rhetoric of argumentation, does it necessarily require the exclusion of classical Rhetoric? Or is the new rhetoric of argumentation only a new form from classical Rhetoric? If so, what are the different points between the two Rhetoric? And to what degree does the new Rhetoric focus on the foundations of classical rhetoric of argument?

مقدمة:

لقد أثبتت البلاغة نجاعتها وكفايتها في كل مرة لإحاطتها بنمطي الخطاب التخييلي والتداولي،لذلك لم تتوان مختلف الاختصاصات عن الانتهال منها،من خلال إجابتها عن مختلف الأسئلة المتعلقة بالخطاب التخييلي والتداولي،فهي وإن غيرت شكلها في كل مرة تحت تسميات مختلفة بلاغة كلاسيكية،بلاغة جديدة،إلا أنها تظل حاضرة في جميع المراسيم التي تحتفي بالخطاب بكل أنماطه وتمظهراته.

1- في نشأة البلاغة الجديدة:

شهد العصر الحديث عملية الفصل بين مختلف العلوم الإنسانية،التي انجرّت عنها ظهور العديد من التخصصات، لكن في المقابل عادت بعض الأسئلة النّسقية، التي تبحث عن مواضع التداخل بينها في إطار التكامل المعرفي، وتداخل الحقول، فعالم المنطق شاييم بيرلمان الذي صرح في كتاب له "مصنف في الحجاج" البلاغة الجديدة، ليكرر ذات التصريح في كتاب لاحق "إمبراطورية البلاغة" " بأنه فوجئ وهو يسعى إلى وضع منطق للقيم يوازي المنطق الصوري الرمزي، بأن ما كان يبحث عنه موجود في علم قديم اسمه البلاغة، وهو يقصد بلاغة أرسطو بالتّحديد"[1]، أما الثاني والثالث (تودوروف وإيجلتون) ففي رحلة بحثهما عن جوهر الأدب، وأسرار أدبيته خلصا إلى ضرورة البحث عن تلك القضايا، ضمن نظرية الخطاب، والتي كانت تمثل موضوعا لعلم البلاغة. لقد انتهى تودوروف وهو علم متميز في مجال البحث عن الأدبية في إطار قراءة نقدية لنظرية الشكلانيين الروس والفرنسيين معا، وبعد استقصاء لتجليات الأدبية عبر التاريخ من نظرية المحاكاة إلى جمالية القرن الثامن

عشر وما بعدها، إلى أن الأجدر من البحث عن الأدبية، هو البحث عن الأدب كجزء من الخطاب"[2]، ليعلن فان دايك(Van Dyck)على أنّ علم النص هو الوريث الشرعي للبلاغة، ناهيك عن الأسلوبيّة التي عدها بعض الباحثين بديلا عن البلاغة القديمة، غير أنها (الأسلوبيّة) "ما إن حاولت تثبيت كرسيّها على الدكّة التي كانت تستقرّ فيها البلاغة باطمئنان حتى اهتزّ من تحتها، ومال على جانبه لانكسار إحدى قوائمه المتمثلة في البعد التداولي، وهذا ما أبرزه هزيش بليث."[3]

لكن مع ذلك استطاعت البلاغة أن تفرض زمنها في جميع المراسيم التي تحتفي بالخطاب بكل أنماطه وتمظهراته، إذ يقول أوليفيي ريبول (Olivier Reboul) بهذا الخصوص "البلاغة ضرورة لا غنى عنها، لذلك فإننا لا نحتث بلاغة إلا لإنشاء بلاغة أخرى، وهذا ما يشهد به التاريخ، فبعد أن سقطت في نسيان يطبعه الاحتقار إلى نهاية القرن التاسع عشر عادت إلى قوتها خلال الستينيات، [من القرن العشرين] فانتبهنا إلى أنّنا نستعين بها في الإشهار والسياسة والتعليم."[4] ، لتتوالى جهود الباحثين في التنقيب عن "درر علم البلاغة"، إذ لا سبيل لفك شفرة مختلف الخطابات دون اللجوء إلى متحفها "، ومع ذلك فإن القول بطريقة جازمة، إن البلاغة ماتت يقتضي التأكيد بماذا قد عوّضت، لأنه كما رأينا مرارا بواسطة هذا السباق التعاقبي، فالبلاغة يجب دائما أن تقرأ في هذه اللعبة البنيوية لجيرانها (النحو، المنطق، الشعرية، الفلسفة) إنها لعبة النسق المعبرة تاريخيا وليس كلا من أجزائها في ذاتها"[5].

فيا ترى ماهي الأسباب الداعية إلى القول بأن الأسلوبية أو الشعرية أو علم النص ورثة الخطابة الأرسطية؟ وفيم تكمن أهم العوامل التي دعت إلى إحياء شق من شقّي البلاغة (التخييل/التداول) ودحض الشق الآخر؟

وللإجابة عن تلك الأسئلة عمد بارت(R.Barthes) إلى تقسيم المراحل التي مرّت بها الخطابة إلى مرحلتين، والتي انتهت بحلول الأسلوبيّة محلها.

"الفترة الأولى: "وهي فترة الخطابة الأرسطية في نصوصها البانية لها المؤسسة لأطروحاتها، وصنعة الخطابة " Techné rhétorique" بهذا المعنى قول جار بين الناس في معاملاتهم، وخطب تلقى أمام الجمهور في السياسة، والأخلاق، وحياة المدينة، ومرافعات في رحاب مؤسسات كالمحاكم، وإلى جانب صنعة الخطابة وضع أرسطو فن الشعر، أو صنعة الشعر (Techné poiétike) ووظيفتها إيقاع المحاكيات بالإيحاء، والتخييل لا الإقناع بإيجاد الحجة وترتيبها"[6]، فالمرحلة الأولى حسب بارت ابتدأت بتأليف أرسطو مؤلفين "الخطابة" و"فن الشعر" (poétique/rhétorique) عني الأول بالخطاب التداولي، والثاني بالخطاب التخييلي، "فيكون تبعا لذلك من دلائل صفاء النظرية وانتسابها الخالص إلى بانيها احتفاظهما بالثنائية المذكورة وإيفائها بالفروق التي يجب أن تراعى بينها، وتكفّ الخطابة بهذا المنطق عن كونها أرسطية عندما يعرف التّعارض بين النشاطين، وينصهران في بوتقة واحدة، وتصبح مقررات الخطابة ومقاييسها في جانب العبارة طبعا آلة الشعر وعيار الإبداع"[7]

أما المرحلة الثانية* فكانت بذورها الأولى بتوحيد الخطابة والشعر على يد كل من الشاعر الحكيم أوفيد (Ovid) والشاعر السياسي هوراس (Horace) "فقد اشتهر عن الأول تقريبه بين القصيدة الشعرية والخطبة، وكتب الثاني رسالة في صناعة الشعر، جعل فيها الآلة الخطابية في مظهرها اللغوي أداة لدراسة الشعر، حتى أصبحت تبعا لذلك كتب صناعة الشعر كتب الخطابة"[8].

لقد اقترنت البلاغة تاريخيا بالخطاب التداولي الحجاجي تارة، وبالخطاب الأدبي التخييلي تارة أخرى، لكن الدّارسين يرون أن اختزال البلاغة في الجانب الجمالي والأسلوبي هو تضييق للبلاغة، وانتهاك لنسقها النظري الذي طالما اقترن بالخطاب التّداولي الحجاجي؛ "فالخطابة ماانفكت تتذبذب بين السقوط الذي يتهدّدها، والصعود الذي يحملها للشمولية التي تطمح إلى أن تتساوى مع الفلسفة"[9]، "فلنبدأ بالنظر في السقوط الذي يتهدّدها، إن الخصائص التي ذكرناها تظهر أن الخطاب قابل

للدخل، فالجدل ينزلق إلى السفسطة، وهذا هو المنحدر الأخطر في نظر أفلاطون، إذ يصير فن الإقناع فنا للخداع فيؤدي الاتفاق السبقي بصدد الأفكار المقبولة إلى الأفكار المسبقة المبتذلة، فيؤول فن الإمتاع إلى فن الإغواء، وما هو إلا فرق الخطاب"[10]، فالمنعطف الأخطر في حياة الخطابة هو عبث السفسطائيين بها، وتحويلها من وسيلة إقناعية إلى وسيلة لتزييف الحقائق والخداع، بمغالاتهم واعتدادهم بالجانب الشكلي، من تنميق الخطاب، وزخرفته على حساب الوظيفة الإقناعية، وهذا أخطر مستنقع هدّد وجود الخطابة، وسيظل يتهدّدها.

أما صعود الخطابة فيتجسّد في تجاوزها لمختلف المقامات التي ارتبطت بها سابقا (القضائي، الاستشاري، الاحتفالي)، لتشمل كل الخطابات اللصيقة باللغات الطبيعية، إذ "تحدّدت إمكانية ضم كل ما هو إنساني إلى الحقل الخطابي، لأن اللغة العادية ليست سوى استعمال اللغة الطبيعية في مقامات التخاطب، يخدم الأغراض الخاصة للمتخاطبين، يعني تلك الأهواء التي أفرد لها أرسطو كتابه الثاني من الخطابة، فتكون الخطابة إذن فن الخطاب الإنساني المفرط في إنسانيته"[11].

بعد خطابة أرسطو شهدت إمبراطورية البلاغة عديد الانشقاقات، وأضحى توحيد شقيها (التداولي، التخييلي) تحت إمرتها سبيلا بعيد المنال، فـ "الخطابة تعيش اليوم حالة من التشظي، فقد استقل شاييم بيرلمان(Ch.Perelman) بالخطابة البرهانية القريبة الصلة بالجدل، وضع بها نظرية كاملة في كتابه مصنف في الحجاج: الخطابة الجديدة، وعمد ميشيل مايير(M.Mayer) إلى خطابة النوازع فبنى بها، وعليها نظريته في خطابة النوازع: وهي الأسوأ حظا، وعمدت جماعة ليبج إلى خطابة النص، والصياغة اللغوية فصنعت بها خطابة سمّتها البلاغة العامة "[12]، ولأهمية العلم العتيق "البلاغة" فقد "حاول بلاغيون غربيّون بعد الحرب العالمية الثانية —ظهرت أعمالهم خلال الستينيات في الغالب– استثمار الأفق العام الذي تفتحه الريطوريّة القديمة في الواجهتين: في اتجاه الحجاج والجدل، وفي اتجاه الأسلوب والشعر، وذلك قبل أن تظهر صياغات عامة ذات طابع سيميائي في اتّجاه الخطاب عامة"[13]

ومما تقدم يتبيّن أن "مصطلح البلاغة يعني "العلم الكلّي" الذي يدرس الخطاب الإنساني ماعدا البرهاني منها، نقصد الخطاب العلمي الدقيق المعتمد على الرياضيات والمنطق الصوري، والمتّسم بالإلزام والضرورة، هذا الخطاب الاحتمالي يتفرع إلى مكونين أساسيين: الخطاب الشعري التخييلي والخطاب التداولي الحجاجي، وعليه تتفرع البلاغة بهذا المفهوم إلى شقين: الشعرية و الخطابة

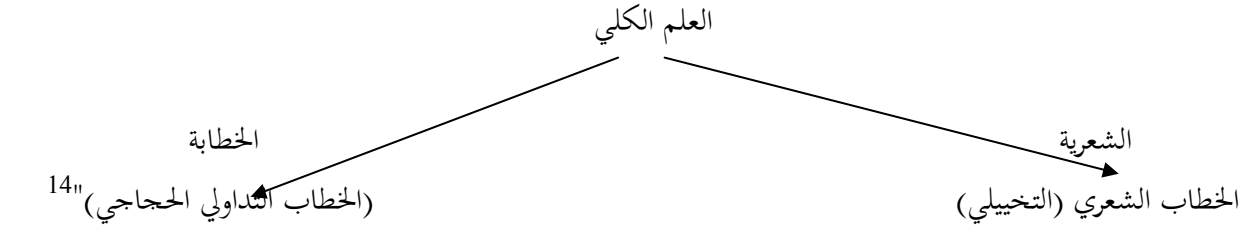

ومن ثم جاز لنا الحديث عن بلاغة شعرية تخييلية، وعن بلاغة حجاجية خطابية، بكونهما (الشعرية والخطابة) ينتميان إلى علم البلاغة.

2-بلاغة الحجاج الجديدة*: مهما تغرّبت البلاغة في أحضان الأسلوبية، أو الشعرية، سيظلّ يشدّها الحنين إلى موطنها الأصلي، الذي انبثقت منه موطن الإقناع، والحجاج، "وبهذا المعنى يكون الاهتمام بالحجاج في مختلف اتجاهاته، ومدارسه انخراطا في هذه النقلة العميقة، التي يعيشها عصرنا بتقويضه لميتافيزيقا قديمة واثقة وثوقا مبالغا فيه من مقدرة الأنظمة التجريدية، والأنساق، وبناء معالم ميتافيزيقا جديدة تنبني على الإنسان بما فيه من جليل وبسيط" [15]، فاللغة كنسق تجريدي ذو وظيفة اختزالية للوجود، ولتفاعل الإنسان مع ذلك الوجود،"وبهذا تفتح البلاغة مجال الترابط بين النص والفعل بين اللغة

وأفعالها، بدء بتفاعل المؤلف مع نصّه، والأثر المنعكس للنص عليه كرأي ملزم له بالأساس (...)، ومنه فكل نص يمتلك القابلية لأن يتحوّل إلى فعل، لأنه مبني بالأساس على "قوة" بالمعنى الأرسطي للكلمة (dynamis)"[16] ، فكل نص يحمل بذور إنجازيّته، وفعاليته، مادام في علاقة متبادلة، ومستمرة بينه وبين مؤلفه، "فالفعل هنا هو جوهر الخطاب، إذ من خلاله يتحوّل النص من "مكان" معزول تبني فيه اللغة نفسها، وتنغلق على قوة تشكيلها وأسلوب تعبيريّتها إلى "مكان" يجتمع فيه المؤلف بالقارئ، الخطيب والسامع"[17]

يتبين أن البلاغة تسعى إلى إقامة شراكة بدايتها النص ومؤلفه، لتنتهي بتوريط القارئ (المتلقي) في تلك الشراكة، يتحول النص بموجبها من مجرد نسق تجريدي منغلق على ذاته، إلى نص منفتح على مؤلفه وقارئه، "ومنه يمكن وصف البلاغة بأنها الإقناع من خلال الخطاب، كما أن الخطاب لا ينبني بمعزل عن متلقّيه، فهو شرط في إقامته، ودليل على خروج النص إلى الفعل ومرجع له، وبهذا تنبني البلاغة على ثلاثية: المتكلم/الخطيب (Ethos) والمتحدث إليه السامع (Pathos) وموضوع الخطاب (logos)"[18]

فالبلاغة تعنى بدراسة فعاليّة الخطاب وتأثيريته في متلّقيه، وفق معادلة مفادها لا إقناع دون خطاب، ولا خطاب دون متلقٍّ، ولا خطاب ومتلقٍّ دون وظيفة إقناعية، "وانطلاقا من هذا الارتباط أمكن جعل البلاغة عملية لإعادة بناء النصوص عبر قراءة تداولية تتعقّب حركة الفعل داخل الخطاب، وعندما نقارن بالبلاغة القديمة فإنها بلاغة في الاتجاه المعاكس؛ أي أنها تنطلق من النص وعبر حدوده الشكلية، وفجواته الأسلوبية وانزياحاته التعبيرية لتصل إلى بناء خطاب جديد، انطلاقا من الفهم كمكان مشترك بين المؤلف والقارئ، وهو الرهان الجديد للبلاغة، وبهذا المعنى يمكن أن نفهم مع غادمير "أن فهم النص شكل إنتاجي مستقل، أقرب شبها إلى فن الخطيب منه، إلى سلوك السامع[19]، ففهم النص من قبل متلقّيه هي بمثابة ولادة ثانية للنص شبيهة بالولادة الأولى المرتبطة بمؤلّفه، "لقد لاحظ بليث أن "عملية إعادة بناء البلاغة باعتبارها منهجا لتحليل النصوص تستند على مبّررين: المبرر الأول ذو طبيعة تاريخية، فهناك أمر أكيد وهو أنه على طول تاريخ وجود نظرية بلاغية فإن نصوصا مختلفة (خطابات، مواعظ ورسائل وأشعار... الخ) تنتج حسب قواعدها، فإذا ما استعملنا بعد ذلك المقولات البلاغية لتأويل تلك النصوص فإننا سنساهم في كشف تركيبها الشكلي القصدي[20]، فالاختلاف الجوهري بين البلاغة التقليدية والبلاغة الجديدة، أن الأولى ذو طبيعة إنتاجيّة، تنتج النّصوص بناء على قواعد النظرية البلاغية، في حين البلاغة الجديدة ذو طبيعة وصفية تأويلية، تتكئ على تلك القواعد لفك شفرة النّصوص، وتأويلها وفق مقصديّة المؤلّف، "ومن خلال هذه الوظيفة الجديدة تعيد البلاغة بناء نفسها بشكل يضمن استمراريتها، التي ترتبط باستمرارية النص نفسه من الناحية التاريخية، أما من ناحية الموضوع فإنها ترتبط بالخطاب كأثر للنص، ومنه تضمن فعاليتها حيث "يمكن للبلاغة المعيارية أن تصبح بلاغة وصفية، بل أيضا بلاغة تاريخية وتأويلية، تعكس بصورة نقدية وضعية تلقي الشارح (للنص)، إنها مؤهلة في هذه الحالة لتكوين أسس "نظرية تداولية للنص "[21]،أي تكوين جهاز نظري للقراءة مبني على تمثل القيم التداولية وتحليل اللغة من خلال أفعالها "[22]

إذن فهي بلاغة تسعى إلى إيجاد جهاز واصف يمثل لمختلف التّفاعلات الحاصلة بين اللغة كنسق، واللغة كإنجاز مرتبط بمستعمليه.

فمما تقدم يتّضح أن تطوّر البلاغة ساهمت فيه حركة الأسلوبية، فكلاهما (البلاغة/الأسلوبية) يرفعان راية التّأثير في المتلقّي، وحمله على العمل بقصدية الخطاب، وبهذا أمكننا فهم ارتباط البلاغة بالخطاب كمسار عقلاني للنص نحو القارئ عبر الفهم، الذي سيصبح جزءا مهما من الوظيفة البلاغية لعملية القراءة، كما هو جوهر في إنتاج الخطابات الواصفة التي تضطلع بمهمة تحرير المعنى من طمس الكتابة، وبذلك هي لغة جديدة وبلاغة جديدة"[23].

3-بلاغة الحجاج الجديدة في بعض النماذج المعاصرة الرائدة:

3-1-بلاغة بيرلمان الجديدة:

يتصدّر بيرلمان(Chaim perlman) قائمة المؤسسين لبلاغة جديدة –أو كما لقبها بإمبراطورية البلاغة- لما لها صلة بالخطابة الأرسطية بوصله الحجاج بالخطابة، نافيا أن يكون مجرد استحضاره للاصطلاحات الأرسطية مبرّرا كافيا للحكم على توجّهه الحجاجي الإقناعي؛ إذ يقول: "إن هذا الاستدعاء للاصطلاحات الأرسطية كان بإمكانه أن يكون مبررا لوصل نظرية الحجاج بالجدل الذي اعتبره أرسطو نفسه فنا للتفكير انطلاقا من آراء مقبولة على وجه العموم، غير أن هناك مبررات كثيرة حملتنا على تفصيل وصلها بالخطابة"[24]، فالمبرر الأقوى الذي جعل بيرلمان يصل الحجاج بالخطابة الأرسطية انطلاقهما من الآراء المحتملة، والأمور التقريبية، "إن هذه الفكرة ذاتها التي ترى أن الجدل يتعلّق بالآراء الاحتمالية (opinions)، أي بالدعاوي التي نميل إليها بدرجات من الميل متفاوتة القوة لم يتم استثمارها، والإفادة منها لقدماء القول بأن الأمور التي تدخل في باب الرأي المحتمل تتميّز بطابعها اللاشخصي، وأن الآراء منفكّة عن النفوس التي تميل إليها، على العكس من ذلك فإن فكرة الميل والنفوس التي نتوجه إليها بالخطاب هاته، هي فكرة جوهرية في جميع النظريات القديمة للخطابة"[25]، هذه الآفاق التي فتحتها البلاغة المعاصرة ساعدت في ظهور الأسئلة الكلاسيكية المرتبطة بالحجاج، ووسائله، وبيرلمان وهو "يحدّد حقل دراسته في مبحث الحجاج يقوم بالتمييز بين مستويين حجاجيين، أولهما الحجاج الإقناعي (l'argumentation persuasive) وثانيهما هو الحجاج الاقتناعي" convaincante (l'argumentation") الأول هدفه إقناع الجمهور الخاص، حيث لا يتحقق الإقناع إلا بمخاطبة الخيال والعاطفة، ومن ثم فهو يضيق هامش فرصة العقل وحرية الاختيار، في حين أن الاقتناع الذي هو هدف الحجاج يقوم على الحرية والعقلنة"[26]، وبيرلمان في تحديده لموضوع الخطابة الجديدة يراهن على الحجاج الاقتناعي فبه تتجلى حرية العقل وحواريّته، بتدقيقه في القضايا التي يشوبها الظنّ والشك، "ولعل هذا سرّ جمع بيرلمان في نظريته بين الخطابة والجدل الأرسطيين، وظهر ذلك الجمع في كون غاية الحجاج إحداث التأثير العلمي المتمخّض عن التصورات العقلية المقدّمة."[27]

وبذلك فخطابة بيرلمان تتعمّق صلتها بالبلاغة القديمة من خلال ارتكازها على مفهوم "المستمع الكوني"، الذي من شأنه يحقق فعاليّة الخطاب وإنجازيّته، باتّكائه على تقنيات، ومكوّنات معرفية، وسياقية، ونفسية بعيدا عن منزلق المغالطات، واللعب بالعواطف، والنوازع، فإذا كان بيرلمان قد تحدث عن مستمع كوني للخطاب، فالحال نفسه بالنسبة للمحلل النّاقد الذي يشترط فيه أن يكون مميّزا قادرا على فك شفرة النص، ومن هنا جاءت فكرة القارئ المثالي عند ريفاتير(M.Riffaterre)، والقارئ النموذج عند آيزر(W.Iser)، والقارئ السيميولوجي عند أمبر تو إيكو(umberto eco)، وإن اختلفت المفاهيم فالكل مجمع على فكرة مشاركة القارئ في إثراء النص، وفتح آفاق تأويله، "لذلك يرى إيكو أنّ النصوص الحقة أضحت الخالقة لقرائها، فثمة ميثاق علامي بين المحلّلين الأكفاء، والنصوص التي تستحق الدراسة، ويشارك كل منهما بقسط في تكوين هذا الميثاق وبلورته انطلاقا من تعاضد إمكانات مقامي التأليف الأصلي، والقراءة اللاحقة"[28]، فالمجتمع هو الذي يعدّ خطباءه وكتابه سلفا، ويعمل على المصادقة على شهادة ميلاد الخطابات الموجّهة إليه، ومن ثمة فهذا التناوب في إنتاج الخطاب هو الذي يتيح إمكانية تأهيل جيد لقارئ نموذجي، قادر على فتح آفاق التأويل، وخلق التناسب، والحوار بين النصوص المتصارعة في فضائه.

3-2-ميشال مايير ونظرية المساءلة:

تعد نظرية المساءلة من النظريّات البلاغية المعاصرة التي تندرج ضمن الإطار الفلسفي، وقد أهلته قراءته التأويلية البلاغية الفلسفية إلى إعادة صياغة مفهوم اللوغوس (logos)،"فلئن تعدّدت مدلولاته منذ الفلسفة اليونانية، فتراوحت بين الحجة

وعنصر الحجاج والخطاب، وغير ذلك، فإنه يعرف (اللوغوس) بأنه كلام العقل الذي يدرك نفسه في كل مداه (اتّساعه) دون أن يحدّه اتّجاه مخصوص، ويعرّف كذلك بأنه "العقل المتكلم" "la raison parlante "، إن نظرية ميار البلاغية وإن كانت تسعى إلى معالجة اللغة في إطار المساءلة الفلسفية الشاملة إلا أن ذلك لم يفقدها نجاعتها الإجرائية: "ذلك أن هذه الجهود التنظيرية في مجال البلاغة تبقى متينة الاتصال بنظرية المعنى المرتبطة بالسؤال أشدّ الارتباط، ولدراسة السؤال المنفتح على الأجوبة المتعدّدة تتضافر المقاصد التداولية (ظروف إنجاز الخطاب) والتأويلية (علاقة السؤال بالجواب) والبلاغية (الحجاجية أساسا)"[29] ، وبالرغم من أنّ مشروع ميار مستل من الموروث الفلسفي، والبلاغي الأرسطي إلا أنه استطاع أن يرسم لنفسه نظرية متميزة بجهاز مفاهيمي مغاير لمعاصريه، "ما جعل كتاباته موغلة في التفصيل، والتفريع، والتحليل، وحتى يعمّق منطلقه الفلسفي حول مكوّنات الكلام فقد أكد بأن الكلام ينزّل التفكير فيه منزلة السؤال التأسيسي، الذي لا يعتمد المعطيات الماقبلية، إنه سؤال تأسيسي يسعى إلى أن يكون مصدر الجواب الأول "la reponse premiere" وعنه تصدر النتائج"[30]

لكن لا يفهم من هذا الكلام أن الغرض من السؤال هو الوقوف عند إجابة نهائية، بل العكس فالإجابة هي بداية مفتوحة لأسئلة لا تنقضي، "ومن هنا يلغي ميار كل المحاولات والمدارس اللغوية التي اشتغلت على اللغة والكلام، لأنها في نظره لم تجب عن السؤال، ماذا يعني أن تتكلم، إن السؤال هو الإمكانية الوحيدة التي يسمح بها السؤال عن جوهر الكلام، وهذا ما يمثل حجر الزاوية في نظريّته، أما بقيّة الأحداث الكلاميّة فهي فرع عن السؤال" [31]، لكن مع ذلك فإيغال نظرية المساءلة في التّجريد حال دون انتشارها وتبنيها من قبل الدّارسين.

3-3-ديكرو ونظرية الحجاجيات اللسانية: تمثل أعمال أوزوالد ديكرو (Oswald Ducrot) وجون وكلود أنسكومبر (J.C.Anscombre) نموذجا للتداولية المدمجة، التي لا تفصل بين الدلالة والتداولية، فموضوع بحثهما "هو بيان الدلالة التداولية (لا الخبرية الوصفية) المسجلة في أبنية اللغة، ويوضح شروط استعمالها الممكن" وإذا كان تأثير أبحاث بنفنيست (I.Benveniste) ونظرية الأعمال اللغوية غير خاف في هذه المنطلقات الأساسية، فإن ما يميّز حقا شواغل هذا التيّار التداولي هو اعتبار اللغة قيدا يضبط نسق ترتيب الأقوال في النصوص، إضافة إلى كونها احتمالات في التركيب والنظم، وهذا التوجيه هو الذي يشرّع البحث في الترابطات الحجاجية الممكنة بما أنّ مسوّغاتها موجودة في البنية اللغوية للأقوال، وليست رهينة المحتوى الخبري للقول، ولا رهينة أي بنية استدلالية صناعية من خارج نظام اللغة" [32]، وبما أن التداولية المدمجة * تبحث في القوانين الداخلية للخطاب لاكتشاف منطق اللغة، فالحجاج من منظورها هو "علاقة دلالية تربط بين الأقوال في الخطاب تنتج عن عمل المحاجة، ولكن هذا العمل محكوم بقيود لغوية فلابد من أن تتوفر في الحجة ف1 شروطا محددة حتى تؤدي إلى ف2، لذلك فإن الحجاج مسجّل في بنية اللغة ذاتها، وليس مرتبطا بالمحتوى الخبري للأقوال، ولا بمعطيات بلاغية مقامية، فالخطاب هو وسيلة الحجاج وهو في آن واحد منتهاه"[33]، فالوظيفة الحجاجية للخطاب يؤشر لها في البنية الداخلية للتركيب، ولا يُعتد بأي مؤشر آخر خارج حدود البنية اللغوية (المؤشر الدلالي، المؤشر المقامي)،"فالحجاجيات اللسانية إذن تقف عند حدود الخطاب، ولا تتجاوزه إلى وقائع أخرى تتعلق بالمنتجين المفترضين لهذا الخطاب (المتكلمين والمتلفظين...) وأحوالهم النفسية، والاجتماعية، وغيرها، فهذه الوقائع الخارجية لا تدخل ضمن اهتمام هذا التوجه"[34]

فمبدأ المحايثة الذي اصطبغت به التداولية المدمجة غدت من خلاله العلاقة الحجاجية عبارة عن تأليف بين الملفوظات ذاتها، ومعنى الملفوظات لا علاقة له بالعالم الخارجي، وإنما بفعل التلفظ الذي ينجزه المتكلم، فالملفوظ يلمح إلى التلفّظ وهو تصوير له، وليس إلى العالم كما يؤكد ديكرو (O.Ducrot) باستمرار، فالكلام هو متتالية من الأقوال تحوي مضامين مدلولاتها في ذاتها، فلا سبيل للحديث عن دلالة لها صلة بالعالم الخارجي، أو بالمتكلمين والمخاطبين، فالعلاقة الحجاجية هي علاقة بنيوية

محاثية لكل ما هو خارج نطاق اللغة، فالتداولية المدمجة تعمد إلى الكشف عن المنطق الداخلي للغة بتتبّع الطابع الاستدلالي لعناصرها، الذي يؤدي التوظيف الأمثل لها إلى تحقيق الوظيفة الحجاجية الإقناعية للخطاب.

فإذا كانت فعالية الحجاج عند بيرلمان تقاس بمدى تكييف الحجج مع طبيعة وقيم المستمعين، ففعالية الحجاج عند ديكرو وأنسكومبر يؤشر لها في المتغيرات الحجاجية المحاثية للجملة، "غير أنهما لاينكران أن يكون هناك في أصل كل عرض للحجج خيار أساس أي "القبول" "الاعتراض" يشد إليه ماقيل، ولكنهما يريدان بيان كيف تؤشر اللغة الطبيعية على النتيجة أو توحي بها، أو تستلزمها وتثيرها وتقتضيها، من دون أن تعبّر عنها بلفظ صريح، بيد أن الطبيعة الحجاجية للغة لا تصبح أمرا قد تمّ البرهنة عليه قطعا بمجرد بيان أن اللغة تصلح للحجاج والإقناع"[35]، فأي خطاب يقتضي وجود تسلسلات خطابية يكون بعضها بمثابة حجج وأدلّة، وبعضها الآخر نتائج متمخّضة عنها، أو بعبارة أخرى إن كون اللغة لها وظيفة يعني أن التسلسلات الخطابية محددة لا بواسطة الوقائع (les faits) المعبر عنها داخل الأقوال فقط، ولكنها محددة أيضا، وأساسا بواسطة بنية هذه الأقوال نفسها، وبواسطة المواد اللغوية التي تمّ توظيفها وتشغيلها."[36]

مما تقدم يتبين أن البلاغة الحجاجية هي بلاغة الخطاب، فبها تتجسّد فعالية الخطاب وجدواه، ويتحوّل من خلالها الإقناع من وجود بالقوة على مستوى كل خطاب، إلى وجود بالفعل بدايتها تغيير القناعات، ونهايتها إصدار الأفعال أو ردعها.

خاتمة:

مما لاشك فيه أن الاختلاف الجوهري بين بلاغة الحجاج التقليدية وبلاغة الحجاج الجديدة، أن الأولى ذات طبيعة إنتاجية، والثانية ذات وظيفة تأويلية، وبالرغم من هذا الاختلاف فصلة الثانية بالأولى لا تُنكر؛إذ تمكنّت بلاغة الحجاج الجديدة أن تعيد بناء البلاغة التقليدية بشكل يضمن استمراريّتها التي ارتبطت باستمرارية النص بنفسه من الناحية التاريخية، ناهيك عن أن البلاغتين تُعنيان بدراسة فعالية الخطاب وتأثيريّته في متلقّيه.

الهوامش:

1-محمد العمري، الحجاج مبحث بلاغي فما البلاغة؟ ضمن كتاب الحجاج،إعداد وتقديم: حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، إربد-الأردن، ط1،2010، ج1، ص 20.

2-المرجع نفسه، ص20.

3-المرجع نفسه، ص21.

4- المرجع نفسه، ص21.

5-رولان بارت، قراءة جديدة في البلاغة القديمة، تر: عمر أوكان، رؤية للنشر والتوزيع، ط1، 2011، ص.72

6-حمادي صمود، في الخلفية النظرية لمصطلح الحجاج، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف: حمادي صمود، كلية الآداب منوبة، 1998، ص38-39.

7-المرجع نفسه، ص39.

*المرحلة الثانية تبدأ مع الامبراطور أكتيفيوس (Octavius) وقد تولى السلطة من سنة 27ق.م إلى سنة 14ق.م .

8-المرجع نفسه، ص39-40.

9-بول ريكور، الخطابة الشعرية التأويلية، تر:ياسين ساوير، ضمن كتاب الحجاج، ج5، ص 206.

10-المرجع نفسه، ص206

11-المرجع نفسه، ص207.

12-محمد الولي، السبيل إلى البلاغة الباتوسية الأرسطية، ضمن كتاب الحجاج، ج2، ص76.

13-محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، إفريقيا الشرق، المغرب، 2005، ص.61

14-الحسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت-لبنان، ط1، 2014، ص13.

*- تجدر الاشارة إلى وجود ثلاث مدارس تعتبر بمثابة أساس للنظرية الحجاجية المعاصرة أولها المدرسة البلجيكية التي اهتمت بالدراسات الحجاجية القانونية بزعامة بيرلمان(Ch.Perelman) الذي ألف بمعيّة تيتكا كتاب: مصنف في الحجاج: الخطابة الجديدة(1958)، وثانيهما المدرسة الانجليزية بزعامة الفيلسوف ستيفن تولين (Stephen Toulmen) الذي ألف كتابا بعنوان: استعمالات الحجة عبر عملية التحديث التي عرضها المجتمع الانجليزي خاصة، والمجتمع الأوروبي عامة. أما المدرسة الثالثة فلم يكن لها تأثير كبير على الدراسات الحجاجية المعاصرة، فظهرت في شمال أمريكا وكندا مع الفيلسوف والمنطقي (Arne Naess).

15-حمادي صمود، في الخلفية النظرية لمصطلح الحجاج، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج من أرسطو إلى اليوم، ص47.

16-عمارة ناصر، الفلسفة والبلاغة –مقاربة حجاجية للخطاب الفلسفي-، منشورات الاختلاف، الجزائر، الدار العربية ناشرون، بيروت-لبنان، ط1، 2009، ص52.

17-المرجع نفسه، ص.55

18-المرجع نفسه، ص55-56.

19-المرجع نفسه، ص .56

20-هنريش بليث، البلاغة والأسلوبية –نموذج سيميائي لتحليل النص- تر: محمد العمري، إفريقيا الشرق، المغرب، 1999، ص23.

21-المرجع نفسه، ص.29

22-عمارة ناصر، الفلسفة والبلاغة، ص.57

23-المرجع نفسه، ص 57.

24- شاييم بيرلمان وأولبريخت تيتكا، مقدمة كتاب مصنف في الحجاج، تر: رشيد الرضي، ضمن كتاب الحجاج، ج5، ص24.

25-المرجع نفسه، ص65.

26-محمد سالم محمد الأمين طلبة، مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، ضمن كتاب الحجاج، ج2، ص188.

27-المرجع نفسه، ص191.

28-المرجع نفسه، ص.203

29-محمد علي القارصي، البلاغة والحجاج من خلال نظرية المسائلة لميشال مايير، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص 391-392.

30- محمد علي القارصي، البلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة لميشال مايير، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج من أرسطو إلى اليوم، إشراف: حمادي صمود، ص392.

31-المرجع نفسه، ص .392

32-شكري المبخوت، نظرية الحجاج في اللغة (ديكرو)، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص351-352.

* -"تعارض التداولية المدمجة تيارا منطقيا قائما على تصوّر خطّي للتركيب والدلالة والتداول، ففي منظوره يمكن دراسة اللغة سواء كانت طبيعية أو اصطناعية وفق ثلاث مراحل:

1-مرحلة التركيب: وتعنى بدراسة علاقة الكلمات ببعضها البعض في التركيب.

2-مرحلة الدلالة: تعنى بدراسة علاقة الكلمات بمراجعها، واعتماد مبدأي الصدق والكذب في تصنيف الجمل بناء على على مطابقتها أو مخالفتها للعالم الخارجي.

3-مرحلة التداول: تعنى بدراسة علاقة الكلمات بمستعمليها، فهي تنظر في مدى مواءمة الجمل لمقام الخطاب، مدى تحقيق الخطاب لفعاليته (التأثير)".

33-شكري المبخوت، نظرية الحجاج في اللغة (ديكرو)، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص360-361.

34-رشيد الرصي، الحجاجيات اللسانية والمنهجية البنيوية، ضمن كتاب الحجاج، ج5، ص.81

35-ميشيل مايير، اللغة والمنطق والحجاج (مقال)، تقديم وترجمة: محمد أسيداه، ضمن كتاب الحجاج، ج5، ص28.

36-أبو بكر العزاوي، الحجاج في اللغة، ضمن كتاب الحجاج، ج1، ص57.